﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٠٠﴾ [المؤمنون: 99 - 100]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

الاستعاذة من الشّياطين سبيلُ النّجاة ساعةَ الاحتضار

للمُفسّرين في ارتباط هاتيْن الآيتيْن بما قبلهما عدةُ آراء؛ **الأوّل**: أنَّهما مُرتبطتان بحضور الشّياطين ساعةَ الموتِ؛ لأنّ أضَرّ أوْقاتِ حُضورِهم إنّما يكون ساعَةَ المَوْتِ، وحالَةَ الفَوْتِ، فإنَّهُ وقْتُ كَشْفِ الغِطاءِ عَمّا كُتِبَ مِنَ القَضاءِ، فقد آنَ اللِّقاءُ، وتَحَتَّمَ السُّفولُ أوِ الارْتِقاءُ، فعَقَّبَ ذَلِكَ بِذِكْرِهِ؛ تَنْبيهًا عَلى بَذْلِ الجُهْدِ في الدُّعاءِ والتَّضَرُّعِ لِلْعِصْمَةِ فيهِ، فقالَ مُعَلِّقًا بِقَوْلِهِ تَعالى: ﴿بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ٥٦﴾ [المؤمنون: 56]، أوْ بـ﴿مُبۡلِسُونَ ٧٧﴾ [المؤمنون: 77][1].

والثّاني: أنّهما متعلّقتان بقوله تعالى: ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾؛ أيْ إنّ هؤلاء الكفّار المعاندين لا يَزالونَ عَلى سوءِ الذِّكْرِ إلى هَذا الوَقْتِ، والآيَتان الفاصلتان بَيْنَهُما عَلى وجْهِ الاعْتِراضِ، والتَّأْكيدُ لِلْإغْضاءِ عَنْهم مُسْتَعينًا بِاللّه عَلى الشَّيْطانِ أنْ يَسْتَزِلَّهُ عَنِ الحِلْمِ، ويُغريه على الانتصار منهم، أو على قوله تعالى: ﴿بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾[2]، بينما ذهب ابنُ عاشور إلى أنّهما متّصلتان بقَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمۡ لَقَٰدِرُونَ﴾، وعلّل ذلك بأنّه انْتِقالٌ إلى وصْفِ ما يَلْقَوْنَ من العَذابِ في الآخِرَةِ، بَعْدَ أنْ ذُكِرَ عَذابُهم في الدُّنْيا، فيَكونُ قَوْلُهُ هُنا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ وصْفًا أُنُفًا لِعَذابِهم في الآخِرَةِ، وبذلك يترجَّح أنْ يَكونَ ما سَبَقَ

(1) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 13/ 184.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 249، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 12/ 117.

ذِكْرُهُ من العَذابِ ثَلاثَ مَرّاتٍ عَذابًا في الدُّنْيا لا في الآخِرَةِ، فإنْ حَمَلْتَ العَذابَ السّابِقَ الذِّكْرِ عَلى عَذابِ الآخِرَةِ؛ كانَ ذَلِكَ إجْمالًا، وكانَ قَوْلُهُ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ إلى آخِرِهِ تَفْصيلًا لَه، وضَمائِرُ الغَيْبَةِ عائِدَةٌ إلى ما عادَتْ عليه الضَّمائِرُ السّابِقَةُ مِن قَوْلِه: ﴿قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [المؤمنون: 82] إلى ما هُنا، ولَيْسَتْ عائِدَةً إلى الشَّياطينِ، ولِقَصْدِ إدْماجِ التَّهْديدِ بِما سَيُشاهِدونَ مِن عَذابٍ أُعِدَّ لَهم، فيَنْدَمونَ على تَفْريطِهِم في مُدَّةِ حَياتِهِم[1].

والحَقّ أنّه لا تنافي بين هذه التّقديرات كلِّها؛ فكلُّها عائدةٌ على أوصاف الكافرين المعاندين الذين شَرعتِ السّورةُ الكريمة كلُّها في مخاطبتهم وتفنيد أكاذيبهم وتُرهاتهم، التي تقوّلوها على الله سبحانه وعلى نبيّه ﷺ، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾﴾ [المؤمنون: 54] إلى ختام السّورة.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱرْجِعُونِ﴾: (رجع) أَصْلٌ كَبيرٌ مُطَّرِدٌ مُنْقاسٌ يَدُلُّ على رَدٍّ وتَكْرارٍ، والمعنى المحوريّ: تحوّلٌ عن الاتّجاه أو الحال إلى عكسه، كما يَتردّد الماءُ في الغدير؛ لأنّه مُحتبسٌ فيه لا يسترسِل بعيدًا، وكما يتحوّل الماءُ الصّافي العذبُ إلى عَرَقٍ كَريه الرّيح، والطّعامُ إلى نَجْوٍ، فهاتان صورتان للمعنى، والرُّجْعَى: الرُّجوعُ، والتَّرْجيعُ في الصَّوْتِ: تَرْديدُهُ، فمِنَ الرّجوع قولُه تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾ [الأعراف: 168]؛ أيْ: يرجعون عن الذّنب، وقولُه جلّ اسمُه: ﴿بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [النّمل: 35] فمِنَ الرّجوع، أو من رَجْعِ الجواب، وأمّا قولُه: ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [النّمل: 28] فمِن رَجْع الجوابِ لا غير، والرَّجْعُ في قَوْلِهِ جَلَّ وعَزَّ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾﴾ [الطّارق: 11]؛ أي: الغَيْثُ؛ وهوَ المَطَرُ، وذَلِكَ أنَّها تَغيثُ وتَصُبُّ، ثُمَّ تَرْجِعُ فتَغيثُ[2]، والمُراد هنا: العودة إلى الحياة الدّنيا؛ لاستئناف العمل الصّالح بعدما شاهد من سوء مقامِه في الآخرة عند الاحتضار.

2) ﴿تَرَكْتُ﴾: (ترك) التَّرْكُ التَّخْليَةُ عن الشَّيْءِ، والمعنى المحوريّ: هو مُفارقة الشّيء ما كان يَعْلَق به، كالفرخ من البيضة، ثمّ أُطلِق في التّخلّي عنِ الشّيء وعدمِ التّعلّق به، وعلى

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 12/ 16، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 118 - 119.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المُفردات، والسّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (رجع).

مُجرّد إبقائه على حاله دونَ مساسٍ به، كأنّه لا عُلْقَةَ له بما يملك أمرَه، فتَرِكَةُ المَيِّت: ما يَتْرُكُهُ مِنْ تُراثِه، ومنَ المفارقة قولُه تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ [النّساء: 7]؛ أيْ: ما خلّفوه منَ المال وذهبوا، وقولُه تعالى: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾ [الدّخان: 24]؛ أي: اخرُجْ من جوفه وفارِقْهُ وهو على تلك الحال، وأمّا المُرادُ بـ: ﴿فِيمَا تَرَكْتُ﴾ هنا فهو (فيما خَلَّفْتُ من المالِ) أو (فيما قَصَّرْتُ)[1].

3) ﴿كَلِمَةٌ﴾: (كلم) أَصْلانِ؛ أَحَدُهُما: يَدُلُّ على نُطْقٍ مُفْهِم، والآخَرُ: على جِراحٍ، والكَلْمُ: التّأثير المُدْرَك بإحدى الحاسّتَيْن، فالكَلامُ: مُدْرَك بحاسّة السّمع، والكَلْمُ: بحاسّة البصر، ومنَ الاتّصال والتّداخل المادّيْن استُعمل التّركيبُ في الاتّصال والتّداخل بالصّوت؛ أي: الكلام الذي هو القولُ، فكَلَّمته حقيقتُها: أَوصلتَ إليه ما في نفسك بالصّوت، تَقولُ: كَلَّمْتُهُ أُكَلِّمُهُ تَكْليمًا، ثُمَّ يَتَّسِعونَ فيُسَمّونَ اللَّفْظَةَ الواحِدَةَ المُفْهِمَةَ كَلِمَةً، والقِصَّةَ كَلِمَةً، والقَصيدَةَ بطولِها كَلِمَةً، ويَجْمَعونَ الكَلِمَةَ كَلِماتٍ وكَلِمًا، والمُراد بالكلمة هاهنا قولُه: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾[2].

4) ﴿وَرَآئِهِم﴾: الوراء: الخَلْفُ، والوراء: القُدّام، وهو كلّ ما استتر عنك وتوارى[3]، وأوراه غيره، وورّاه توريةً: أخفاه، وورَّى الخبرَ توريةً: ستره، وتوارى: استتر، ووراء: يَكونُ مِنْ خَلْفٍ، ويَكونُ مِنْ قُدّامٍ، قالَ اللّه تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ [الكهف: 79]؛ أَيْ: أَمامَهُم، والوَرَى: الخَلْق، ويُقالُ الوَراءُ: ولَدُ الوَلَدِ، أَرادوا بِذَلِكَ تَفْسيرَ قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ [هود: 71]، وقولُه: ﴿وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: 94]؛ أيْ: خلّفْتُموه بعد موتكم، وقولُه: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ [المؤمنون:7]؛ أيْ: مَن ابتغى أكثرَ ممّا بيّنّاه وشرعناه، فمَن تعرّضَ لمَن يَحْرُم التّعرُّضُ له فقد تَعَدّى طورَه[4]، والمُراد بـ﴿وَمِن وَرَآئِهِم﴾؛ أيْ: من قُدّامِهِ وبَيْنَ يَدَيْهِ، واسْتِعْمالُ وراءَ في هَذا وذاكَ بِناءً عَلى أنَّها مِنَ الأَضْدادِ عِنْدَ بعضهم، وقالَ جَماعَةٌ: إنَّها مِنَ المُشْتَرَكاتِ المَعْنَوِيَّةِ، فهي مَوْضوعَةٌ لِأمرٍ عامٍّ صادِقٍ عَلى القُدّامِ والخَلْفِ، وهو ما تَوارى عَنْكَ[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المُفردات، والسّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ترك).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المُفردات، والسّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (كلم).
(3) ابن دريد، جمهرة اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ورأ).
(4) الرّاغب، المُفردات: (ورى).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المُفردات، والسّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ: (ورى)، والآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 248.

5) ﴿بَرْزَخٌ﴾: البَرْزَخُ: الحائِلُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ كَأَنَّ بَيْنَهُما بَرازًا، أَيْ: مُتَّسَعًا من الأَرْضِ، والمعنى المحوريّ: مَعْبَرٌ باطنيٌّ جوفيٌّ من خلال حاجزٍ بين أشياء، والبرزخ في القيامة: الحائلُ بينَ الإنسان وبين بلوغ المنازل الرّفيعة في الآخرة، وقيل في الوسوسة: هي بَرازِخُ الإيمان؛ أي: ما بَيْنَ الشَّكِّ واليَقينِ؛ وقيلَ: هوَ ما بَيْنَ أَول الإيمان وآخِرِهِ، والبرزخ ما بين الدّنيا والآخرة قبل الحشر؛ أيْ: من الموت إلى البعث، وهو المُراد في قوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[1].

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

ساعة الاحتضار ساعةٌ جليلةٌ تكشف الأستارَ عن مقامات المتّقين والفُجّار

بعد أن بيّنتِ السّورةُ الكريمة أهميّةَ الاستعاذةِ من هَمَزات شياطينِ الإنس والجِنّ وحضورِهم؛ شرعت في بيان مآل هؤلاءِ المُكذّبين المُعاندين عندَ الاحتضار، فإذا حضر أحدَهم الموتُ ورأى رهبتَه، وأدرك معانيَ الآياتِ الكونيّة والقرآنيّة والدّعوةِ المُحمّديّة، وعلم أنّه كان في ضلالٍ – تمنّى أن يعود إلى الدّنيا؛ رجاءَ أن يعمل صالحًا فيما ترك من مالٍ وقوّة وسلطان، أو فيما أعرض عنه وفارقَه من الحَقّ؛ ليَتداركَ بعضَ ما فات، فيتَّجِهَ بالخطاب للّه أو لملائكة الاحتضار، بالضّراعة والرّجاء، فكأنّما المشهدُ معروضٌ في هذه اللَّحظة للأنظار مشهودٌ كالعيان، ورغمَ هولِ الموقف وشِدّته يصيبُه بعضُ التّردّد؛ لأنّه لا يضمن توفيقَ اللّهِ له، ولكنّه يرجو لأنّ الرّجاء هو ما تقتضيه الكياسَةُ في هذا المقام، فهو يطلبه راجيًا، وقد رَدّ اللّه تعالى رجاءَه، مُكَذبًا له في عزمته على تدارك ما فاته، وإنّما هي أمنيةٌ يتمنّاها ويُخالفها، كما كان يَعِدُ في الدّنيا أنّه إذا ذهبَ الكَرْبُ عاد إلى ربّه مؤمنًا، فإذا كَشَف اللّه عنه الضُّرّ عاد كافرًا، فهذا الرّجاءُ مُجَرّدُ كلمةٍ نطق بها، لا تصادِفُ عقيدةً في قلبه، ولا تجاوزَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ: (ورى)، والآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 248.

النّطقَ بها، ولا معنى لها في القلب، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: 28]، إنّها كلمةُ الموقفِ الرّهيب، لا كلمةُ الإخلاصِ المُنيب، ولكن كيف يعود للدّنيا، وقد انتهى زمنُ التّكليف، وحان زمنُ الحساب، وقُضيَ الأمرُ، وانقطعتِ الصّلاتُ، وأُغلقتِ الأبوابُ، وأُسدلتِ الأستار، ودخل هؤلاء الكفّار في مرحلة البرزخ ينتظرون يومَ البعث والحساب العظيم، وحيل بَيْنَهم وبين ما يشتهون من استئنافٍ للعمل في غير دار التّكليف[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى ﴿حَتَّىٰٓ﴾ ودلالتُها:

ظهورُ الحَقّ ساعةَ الموتِ مُبينٌ عن حقيقة سَعي الإنسان في الدّنيا ومآلِه في الآخرة

ربط النّظمُ الحكيمُ بين هذه الآيةِ وما قبلَها بـ﴿حَتَّىٰٓ﴾، وقد تعدّدت أقوالُ المُعربين والمُفسّرين؛ فالجمهورُ على أنّها حرفُ ابتداءٍ دخل على الجملة الشّرطيّة، وهي مع الجملة الشّرطيّة غايةٌ لما قبلها، وهو الوجه الأقوى، وجوّز ابنُ عطيّة مع معنى الابتداء أن تكون غايةً مجرّدةً، بتقدير كلام محذوف[2]، واختلفوا في بيان مُتعلّقها - كما سبقتِ الإشارةُ عند بيان مناسبة الآيتَيْن لما قبلهما - على أقوال؛ فمنهم من رأى أنّها متعلّقة بقوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾، والآيَتان الفاصلتان بَيْنَهُما عَلى وجْهِ الاعْتِراض، والتَّأْكيدُ لِلْإِغْضاءِ عَنْهم، أو أنّها راجعة على قوله تعالى: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾[3].

وذهب بعضُهم: إلى أنّها مُتعلّقة بـ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون: 56]، أوْ بـ﴿مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [المؤمنون: 77][4]، ورأى غيرُهم أنّها متعلّقة بقَوْلِهِ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5117، وقد ورد هذا المعنى في القرآن في عدد من المواضع، منها: (الأَنعام: 27 - 28، والأَعْرافِ: 53، وإبْراهيمَ: 44، والسّجدة: 12، وفاطِر: 37، وغافِر: 11، 12، والشّورَى: 44، والمُنافِقونَ: 10 - 11).

(2) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 6/ 320، وأبو حيّان البحر المحيط: 15/ 484، والشّنقيطيّ، أضواء البيان: 5/ 896.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 249، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 12/ 117.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 184.

تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ﴾، وضَمائِرُ الغَيْبَةِ عائِدَةٌ إلى ما عادَتْ عليه الضَّمائِرُ السّابِقَةُ من قَوْلِه: ﴿قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝٨٢﴾ [المؤمنون: 82][1].

وذهب فريقٌ إلى أنّها غاية لكلام محذوفٍ يدلُّ عليه ما قبله، قدّروه بـ"فَلا أكونُ كالكُفّارِ الَّذينَ تَهْمِزُهُمُ الشَّياطينُ ويَحْضُرونَهم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾[2].

والحَقّ أنّه لا تنافي بين هذه التّقديرات كلّها؛ فكلُّها عائدة على أوصاف الكافرين المُعاندين، الذين شرعتِ السّورةُ الكريمة كلّها في مخاطبتهم، وتفنيد أكاذيبهم وتُرّهاتِهم التي تَقَوَّلوها على اللّه سبحانه، وعلى نبيّه ﷺ ابتداءً من قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝٥٤﴾ [المؤمنون: 54] إلى ختام السّورة.

وقد أفادت ﴿حَتَّىٰٓ﴾ في هذا السّياق بيانَ سوءِ عاقبة الكافرين الذين تمادَوا في عصيانهم وكُفرِهم وتكذيبِهم، وأنّهم سيُلاقون جزاءَ كلّ ما فعلوه وقالوه في حَقّ اللّه ﷻ، وفي حَقّ نبيّه ﷺ.

غرضُ التّعبير بأسلوب الشّرط والأداة:

وُرودُ حياض الموت أمرٌ مُحَقّقٌ مُؤَكّدٌ لا بُدّ منه لكلّ مخلوق

عبّر النّظمُ الحكيمُ عن مجيء الموت بأسلوب الشّرط، مستخدِمًا الأداة ﴿إِذَا﴾ في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾، وهي موضوعةٌ في الأصل للمقطوع بحصوله، وللكثير الواقع، وعلى هذا سار النّظمُ القرآنيّ[3]، ومَجيء الموتِ منَ الأمور المقطوعة الثّابتة، وإن غابت عن أذهان كثيرٍ منَ البشر، والكافرون المُعاندون، وإن كانوا يوقنون بالمَوت عقلًا، إلّا أنّهم من أكثر النّاس بُعْدًا عن تَيَقّن وقوعِه فِعْلًا وحِسًّا، وهم أكثرُهم غفلةً عنِ العمل لما بعدَه، ومِن ثَمَّ جاء النّصُّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 122، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5117.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 15/ 484، والخطيب، التّفصيل: 18/ 123 - 124.
(3) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 4/ 71.

الكريمُ بأداة الشّرط ﴿إِذَا﴾ ليُؤكّد هذه الحقيقةَ القارَّةَ التي لا مَفَرّ منها، وليُنبّه العقولَ والنّفوسَ إلى ضرورة الإيمان والعمل الصّالح؛ استعدادًا لهذه اللّحظة الفاصلة.

دلالةُ التّعبير بالماضي ﴿جَآءَ﴾:

زيادةُ التّأكيد على مجيء الموت لتقرير هذه الحقيقةِ في النّفوس

استعمل النّظمُ القرآنيُّ الفعلَ الماضي ﴿جَآءَ﴾؛ وذلك لأنّ ﴿إِذَا﴾ تُفيد الجزمَ بالوقوع، وقد غلب معها استعمالُ لفظِ الماضي[1]، كما أفاد مجيءُ الفعل في صيغة الماضي تأكيدَ أمرِ الموت بوصفه حقيقةً قارّةً لا مَفرّ منها.

غرض تقديم المفعول على الفاعل:

ترهيبُ النّفوس بأمر الموت لتتّعِظَ وتعملَ لما بعدَه

جاء النّظمُ الحكيمُ بتقديم المفعول به على فاعله في قوله تعالى: ﴿جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾، وذلك على خلاف الأصل؛ ليَذْهَبَ الوَهْمُ في فاعِلِهِ كُلَّ مَذْهَبٍ، حتّى إذا جاء لفظ ﴿ٱلْمَوْتُ﴾ فكَشَفَ لَهُ الغِطاءَ، وظَهَرَ لَهُ الحَقُّ، ولاحَتْ لَهُ بَوارِقُ العَذابِ، ولَم يَبْقَ في شَيْءٍ من ذَلِكَ ارْتيابٌ[2]؛ فينشغلُ الذّهنُ بتَخيُّل فاعلِ ﴿جَآءَ﴾ فيتفكّرُ فيه ويعتبر، فإذا قرعَ سمعَهُ لفظُ ﴿ٱلْمَوْتُ﴾ بما له من وقْع في النّفوس وسَطْوَة على القلوب؛ أخذتهُ رهبتُه؛ فيعملُ له ويستعِدُّ للحساب، ولا يَغْتَرّ بعقله وجَدَلِه وحِجاجِه، كما فعل هؤلاء المُكذّبون المعاندون.

ويمكن القولُ إنَّ تقديم المفعول به ﴿أَحَدَهُمُ﴾ على فاعله ﴿ٱلْمَوْتُ﴾ لمعنًى يُشبه معنى التّخصيص، وما ذاكَ إلّا لأنّ الموت أمرٌ ذاتيٌّ بحتٌ له خصوصيتُه وفَرديتُه، ولا يشترك المرءُ في معاناته مع غيره من باقي البشر مهما أخبرَه المُخبِرون، ومهما شاهد من وقائع الموت وفظائِعه، ومنَ الأدلّة على ذلك أنّ كلّ المواضع التي جاء فيها لفظُ (الموت) في القرآن الكريم فاعلًا وكان المفعولُ به اسمًا ظاهرًا؛

(1) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 4/ 77.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 184.

جاءت بتقديم المفعول به على الفاعل، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾ [البقرة: 133] وغيره، ففي كلّ هذه المواضع جاء النّظمُ القرآنيّ بتقديم المفعول به الذي يقع عليه الموتُ، على الفاعل، وهو الموت؛ لإرادة التّخصيص.

سِرّ تعريفِ المُسنَد إليه:

جاء النّظمُ الحكيمُ بتعريف المُسنَد إليه، وهو قوله: ﴿ٱلْمَوْتُ﴾، و(أل) هنا هي الجنسيّةُ التي تكون لتعريف الحقيقة؛ أيّ: جنس الموت على حقيقته؛ كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: 30][1]، ولمّا كان الموتُ حقيقةً عامّةً راسخةً؛ فقد عبّر النّظمُ عنها بهذه الأداة العامّة الشّاملة، وعدلَ عن تعبيرات أُخرى، كأن يقول: (حتّى إذا جاءَ أحدَهم موتُه)؛ ليُفيدَ تقريرَ الحقيقةِ الجازمةِ التي لا مَفَرّ منها، ولا تختلف من إنسانٍ لآخر.

الموتُ حقيقةٌ عامَّةٌ ثابتةٌ جازمةٌ لا تختلف من فردٍ لآخر

بلاغةُ الاستعارة ﴿جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾:

ذكرَ النّظمُ الحكيمُ في قوله تعالى: ﴿جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ مجيءَ الموتِ على طريقة الاستعارة المَكنيّة؛ إذ شبّه الموتَ بشخصٍ يأتي للإنسان في مكانه الذي هو فيه، ثمّ حَذَف المُشبّه به؛ فأفادتِ التّرهيبَ من مجيء الموتِ لهؤلاء المُكذّبين المعاندين الذين افترَوا الأكاذيبَ والضّلالاتِ على اللّه تعالى ورسوله ﷺ.

لكلّ إنسانٍ أجلٌ محتوم لا بُدّ من مجيئه، فلْيَجتهدْ في العمل لما بعدَه

بلاغة المجاز العقليّ ﴿جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾:

يمكن النّظر إلى الفعل ﴿جَآءَ﴾ على أنّه مجاز بالحذف، إذِ المرادُ مجيءُ أماراته وظهورُ أحواله وعلاماته؛ والمعنى: حتّى إذا ظهرت أماراتُ الموت لأحدهم وبدت له أحوالُ الآخرة، ويجوز اعتبارُ ﴿جَآءَ﴾ على حقيقته؛ ويكون التّعبير مجازًا عقليًّا؛ لأنّ الذي يأتي هو مَلَكُ

مجيءُ أماراتِ الموت أو ملائكتِه أمرٌ ينبغي الاعتبارُ به

(1) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 4/ 77.

الموتِ الذي وُكِّلَ بهم؛ فإسناد المجيء إلى الموت مجازٌ عقليٌّ علاقته السّببيّة؛ إذِ الموتُ هو سبب مجيءِ المَلَكِ الموكَّل بقبض الأرواح عند انتهاء الآجال[1].

غرضُ التّعبير بأسلوب النّداء المحذوفِ الأداة:

الكافر بين الاضطراب والرّهبةِ والتّعلُّق بأهداب الأمل

في قوله تعالى: ﴿رَبِّ﴾ حُذِفَت أداةُ النّداءِ (يا)، وقد يكونُ هذا الحذف راجعًا لأحد وجوه حذف أداة النّداء، ومنها: العَجَلةُ والإسراعُ بقصد الفراغ منَ الكلام بسرعة، وقد يكون الحذفُ للإيجاز؛ وذلك لأنّ المقام قد يكون مقامَ إيجاز واختصار[2]، وقد يكون لضيق المقام[3]، ويحتمل أن يكون للتّعظيم والإجلال والتّأدّب؛ لأنَّ النّداءَ فيه طَرَفٌ من معنى الأمر؛ فحُذِفت (يا) من نداء الرّبّ ليزولَ معنى الأمر وينقص؛ لأنَّ (يا) تُؤَكِّده وتُظهر معناه، فكان في حذف (يا) الإجلالُ والتّعظيم والتّنزيه[4].

غرضُ التّعبير بالأمر ﴿ٱرۡجِعُونِ﴾:

ندمُ الكافر وحسرته عند الاحتضار

عبّرَ النّظمُ الحكيم عن موقف الكافر المُعاند بفعل الأمر ﴿ٱرۡجِعُونِ﴾ الذي يُفيد الضّراعة والرّجاء والتّذلّل أمامَ العَظَمة الإلَهيّة، وما ذاك إلّا من أثر ما أبصره من هول ما أعدّه الله تعالى للمُكذّبين المعاندين، كما جاء في الحديث الطّويل عن البَراءِ بْنِ عازِبٍ ﷺ قالَ: خَرَجْنا مَعَ النَّبيِّ ﷺ، ومنه: «وَإِنَّ العَبْدَ الكافِرَ إِذا كانَ في انْقِطاعٍ مِنَ الدُّنْيا، وإِقْبالٍ مِنَ الآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّماءِ مَلائِكَةٌ سودُ الوُجوهِ، مَعَهُمُ المُسوحُ، فيَجْلِسونَ مِنْهُ مَدَّ البَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ المَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فيَقولُ: أَيَّتُها النَّفْسُ الخَبيثَةُ اخْرُجي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللهِ وغَضَبٍ، قالَ: فتَفَرَّقُ في جَسَدِهِ،

(1) فيود، تفسير بلاغي لسورة المؤمنون، ص: 142.
(2) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 4/ 322 - 323.
(3) فيود، تفسير بلاغي لسورة المؤمنون، ص: 142.
(4) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/ 286.

فيَنْتَزِعُها كَما يُنْتَزَعُ السَّفّودُ مِنَ الصّوفِ المَبْلولِ ... »[1]، فإنّ هذا المشهدَ المُفْزِعَ يأخذُ بلُبِّ الكافرِ، فيصيحُ في ضراعةٍ وقد أصابه الذّلُّ والقُنوطُ: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ بعد أن أبصر مقعدَه من النّار، وتيقّن أنّه خالدٌ فيها إلى يوم يبعثون كما في حديث ابن عمر ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال: «وَإِنْ كانَ مِنْ أَهْلِ النّارِ فمِنْ أَهْلِ النّارِ؛ فيُقالُ: هَذا مَقْعَدُكَ، حَتَّى يَبْعَثَكَ اللهُ يَوْمَ القيامَةِ»[2].

نُكْتَةُ العدولِ إلى ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾:

ذهابُ نفسِ الكافرِ كلَّ مذهبٍ عند مشاهدة مقعدِه من النّار

تعدّدت آراءُ العلماء في تعليل العدولِ عن التّعبير بالمُفرد إلى التّعبير بالجمع في قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾، على أقوال:

الأوّل (وهو أرجحها): أنّه على إرادة التّعظيم، ممّا جرى على ما وصف به اللهُ نفسَه، وأنكره ابنُ مالك، فقال: لم نعلم أحدًا أجاز للدّاعي أن يقول: (ربِّ ارحمون)؛ قال: لئَلّا يوهِمَ خلافَ التّوحيد، ورَدَّ عليه إنكارَه غيرُ واحد منَ اللّغويّين والمُفسّرين، قالوا: الواوُ لِتَعَظُّمُ المُخاطَب، وهو الله تعالى، كَما في قَوْلِ الشّاعر:

أَلا فارْحَموني يا إلَهَ مُحَمَّدٍ *** فإنْ لَم أَكُنْ أَهْلًا فأنْتَ لَهُ أَهْلُ

وقَوْلِ العَرْجي:

وإنْ شِئْتِ حَرَّمْتُ النِّساءَ سِواكُمُ *** وإنْ شِئْتِ لَم أُطْعِم نُقاخًا ولا بَرَدًا[3]

فالتَّعْظيمَ يَكونُ في ضَميرِ المُتَكَلِّم والمُخاطَب، بَلْ والغائِبِ والاِسْمِ الظّاهِرِ، وإنْكارُ ذَلِكَ غَيْرُ رَضيٍّ، والإيهامُ الَّذي يَدَّعيهِ ابْنُ مالِكٍ هُنا لا يُلْتَفَتُ إلَيْهِ[4]، وقد بالغ الشّهابُ في ترجيح هذا الوجه على الوَجهَيْن الآخريْن، فقال: ومن فرّ منه فجعله خطابًا للملائكة بعد

(1) أخرجه أحمد في المُسنَد، أول مُسنَد الكوفيّين، برقم: (18832).
(2) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (1395).
(3) النقاخ: الماء البارد، والبرد: النوم، يُنظر: الجوهريّ، الصّحاح: (نقخ)، (برد).
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 15/ 484، والآلوسيّ، روح المعاني: 18/ 139، والخطيب، التّفصيل: 18/ 124 - 125.

الاستغاثة باللّه، فقد تعسّف، وأقربُ منه تقدير المضاف؛ أيْ: ملائكة ربي، وأمّا اعتراض ابنِ مالك بأنّه لا يَعْرِف أحدًا يقول: (رب ارحمون) ونحوَه؛ لما فيه من إيهام التّعدّد فمدفوعٌ بأنّه لا يلزم من عدم صدوره عنّا كذلك أن لا يُطلقَهُ اللّهُ تعالى على نفسه كما في ضمير المُتكلّم[1]، وعلى هذا الوجه يكون العدول لمقام الرّهبة والتّعظيم بعد أن تبيّن له صدقُ ما أمضى حياتَه مُكذِّبًا له من الحقّ وآياته، فقد آن وقتُ الإقرار قهرًا بعد أن رفضَه عِنادًا وكِبرًا بعَظَمة اللّه وجَبَروته، والتّصديق بأنّه سبحانه ما اتّخذ ولدًا، ولم يكن له شريك في المُلك.

والثّاني: أنّ الخِطاب للرّبّ أوّلًا، ثمّ تحوّل إلى ملائكة العذاب، ويجوز على هذا الوجهِ أَنْ يكونَ على حَذْفِ مضافٍ؛ أيْ: يا ملائكةَ ربّي، فحَذَف المضافَ ثمّ التفتَ إليه عَوْدُ الضّميرِ كقوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا﴾ [الأعراف: 4]، ثمّ قال: ﴿أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ۝٤﴾ [الأعراف: 4] التفاتًا لـ (أهل) المحذوف[2]، وأشار بعضُهم إلى وجهٍ آخر في كلمة ﴿رَبِّ﴾ وهي أنّها مُقْسَمٌ به، فكَأَنَّهُ عِنْدَ المُعايَنَةِ قالَ: (بِحَقِّ الرَّبِّ ارْجِعونِ)، وذهبَ الآلوسيُّ إلى قريبٍ من هذا؛ وهو أن تكونَ كلمةُ ﴿رَبِّ﴾ اسْتِغاثَةً به تَعالى، و﴿ٱرْجِعُونِ﴾ خِطابٌ لِلْمَلائِكَةِ ﷺ، قال: ورُبَّما يُسْتَأْنَسُ لِذَلِكَ بِما رواه ابْنُ جُرَيْجٍ قالَ: زَعَموا أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ لِعائِشَةَ رَضيَ اللّه تَعالى عَنْها: «إنَّ المُؤْمِنَ إذا عايَنَ المَلائِكَةَ، قالوا: نُرْجِعُكَ إلى دارِ الدُّنْيا؟ قالَ: إلى دارِ الهُمومِ والأَحْزانِ، بَلْ قُدُمًا إلى اللّه تَعالى، وأمّا الكافِرُ فيَقولونَ لَهُ: نُرْجِعُكَ؟ فيَقولُ: رَبِّ ارْجِعونِي: ﴿لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَـٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾»[3]، وعلى هذا الوجه فإنّ العدول عنِ الجَمع إلى المُفرد يُشير إلى ما أصاب نفسَ الكافرِ من هَولٍ وفَزَع، فتراه يتخبّط في القول؛ بحثًا عنِ النّجاة والمَلاذ، فينادي الرّبّ ﷻ كي يصلَه بأسباب الرّحمة، ثمّ يلتفتُ إلى الملائكةِ يطلبُ منهم الشّفاعة قائلًا: ﴿ٱرْجِعُونِ﴾.

والثّالث: أنّ جَمعَ الضّميرَ دلالةٌ على تكرير الفعل؛ فكَأَنَّهُ قالَ: رَبِّ ارْجِعْني ارْجِعْني ارْجِعْني، وهو يُشْبِهُ ما قالوه في قوله: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ﴾ [ق: 24] أنه بمعنى: أَلْقِ أَلْقِ، ثُنِّيَ

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 6/ 345.

(2) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المَصون: 8/ 367.

(3) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 8/ 367، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 12/ 118، والآلوسيّ، روح المعاني: 18/ 139، والخطيب، التّفصيل: 18/ 124 - 125.

الفعلُ للدّلالةِ على ذلك[1]، وعلى هذا الوجه فإنّ العدول عن ضمير الجمع يدلُّ كذلك على ما أصاب الكافرَ من فزَع ورُعْبٍ حتّى ذهب يكرِّرُ الرّجاء والضّراعة لعلّ اللّهَ يستجيب له، وما له من محيصٍ عن عذاب الآخرة.

موقع جملة التّمنّي ممّا قبلَها ودلالتُه:

جاءت هذه الجُملَةُ الكريمة: ﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ﴾ لتُفيدَ معنى التَّرَجّي في مَوْضِعِ العِلَّةِ لِمَضْمونِ ﴿ٱرۡجِعُونِ﴾[2]، وذلك بعد أن بالغَ الكافرُ في الضّراعة والتّذلُّل والرّجاء؛ كي يَرجعَ إلى الحياة مَرّة أُخرى، على تقدير الخطاب لله تبارك اسمُه، أو لملائكة الموتِ، أو لتكرير الفعل، قال: ﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ﴾؛ فهو ما رغبَ في الرّجوع إلّا رجاءَ أن يستأنف منَ العمل الصّالح ما لم يعمله في الدّنيا بعد أن انشغل بالحِجاج والجَدل في ذات اللّه وذاتِ نبيّه ﷺ بغير عِلْمٍ.

تـمـنّـي الـكـافـرِ وقــتَ لا ينفع التّمنّي من أبلغ الأدلّة على بالغ مـا أصـابـه من الحسرة

غرضُ التّعبير بأسلوب التّرجّي ﴿لَعَلِّيٓ﴾:

جاء النّظمُ الحكيم هاهنا باستعمال ﴿لَعَلِّيٓ﴾ في معنى التّمنّي، إذِ الكافرُ لا يتوقّع الرّجوعَ إلى الدّنيا، ولكنّه من فرْط فزَعِه وإشفاقِه تعلّق بتمنّي الرّجوع، وإن كان على يقين باستحالة هذا الرّجوع، ولكنّه ما تَمَنَّى أَنْ يَرْجِعَ إِلَى أَهْلِهِ وعَشيرَتِه، ولا ليَجْمَعَ الدُّنْيا ويَقْضيَ الشَّهَواتِ، ولَكِنْ تَمَنَّى أَنْ يَرْجِعَ فيَعْمَلَ بِطاعَةِ اللّه، فرَحِمَ اللّه امرءًا عَمِلَ فيما يَتَمَنّاهُ الكافرُ إذا رَأَى العَذابَ[3].

ضـراعـةُ الـكـافـر رغــمَ انـقـطـاع الأمل في الرجوع للدُّنيا

وقد استشكل بعضُ المُفسّرين هذه الرّغبةَ، إذ كَيْفَ يَسْألونَ الرَّجْعَةَ، وقَدْ عَلِموا صِحَّةَ الدّينِ بِالضَّرورَةِ؟! ومِنَ الدّينِ أَنْ لا رَجْعَةَ،

من قصّرَ تحسَّرَ

(1) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 8/ 367، والآلوسيّ، روح المعاني: 18/ 139، والخطيب، التّفصيل: 18/ 124 - 125.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 123.

(3) البغويّ، معالم التّنزيل: 5/ 428.

والجَوابُ: أنَّهُ وإنْ كانَ كَذَلِكَ فلا يَمتَنِعُ أنْ يَسألوهُ؛ لِأنَّ الاستِعانَةَ بِهَذا الجِنْسِ مِنَ المسألة تَحْسُنُ وإنْ عَلِمَ أنَّهُ لا يَقَعُ، فأمّا إرادَتُهُ لِلرَّجْعَةِ فلا يَمتَنِعُ أيْضًا عَلى سَبيلِ ما يَفْعَلُهُ المُتَمَنّي[1]، وذهب بعضُهم إلى أنّ (لعلّ) هنا تُفيد الشّكّ، وقيل: كيف يجوز أن يسأل الرّجعَةَ مع الشّكّ؟

والأرجح أنّ (لعلّ) هنا للتّمنّي؛ فإنَّه في هذا الوقت باذلٌ للجهد في العَزْم على الطّاعة إن أُعطيَ ما سأل، فهو مِثْلُ مَن قَصّر في حَقّ نفسه، وعَرفَ سوءَ عاقبةِ ذلك التَقصير، فيقول: مَكّنوني منَ التّدارك لعلّي أتداركُ؛ فيقول هذه الكلمةَ مع كونه جازمًا بأنّه سيتدارَك[2].

سِرُّ التّعبير بياء التّكلّم اسمًا لـ (لعل):

شِدّة هولِ المقام أنسـت الكافر أهلَه وعشيرتَه؛ فانشغل بذاته وخـــدَه لعـلّه ينجو

جاء النّظمُ الحكيم بياء التّكلّم المُفرد اسمًا لـ (لعلّ) في قوله: ﴿لَعَلِّيٓ﴾ رغمَ أنّ الغالب على السّورة أنّها تعبّر عنِ الكافرين بالجمع لا بالمُفرد؛ وذلك للدّلالة على أنّ هولَ مقامِ الاحتضار ورؤيةِ ما أعدّه اللّهُ منَ العذاب المُقيم قد أخذ بجميع نفسه فأنساه أهلَه وعشيرتَه والمُترَفين الذين كان يتبعُهم بغير حقٍّ؛ فعبّر هنا برغبته الفرديّة في النّجاة، وهو مصداق قول الله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزّخرف: 67].

غرض التّعبير بخبر ﴿لَعَلِّيٓ﴾ جملةً فعليّة:

الـرّغـبـةُ في استمرار العمل الـصّـالـح حـالَ الـرّجـوع دليلٌ على شِـدّة نـدمِ الكافرين

الغالبُ على لغة القرآن أن يجيءَ خبرُ (لعل) جملةً فعليّةً فِعْلُها مضارع ﴿أَعْمَلُ صَٰلِحًا﴾؛ فقد ورد هذا الأسلوب في مائة وأربعة وعشرين موضعًا في حين جاء الخبر اسمًا مُفردًا في خمسة مواضعَ فحسبُ[3]، وقد آثَرَ النّظمُ الحكيم التّعبيرَ هنا بالجملة الفعليّة؛ لأنّها تدلُّ على التّجدّد والاستمرار الكاشفِ عن عظيم أمانيه المستحيلات.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 12/ 117.
(2) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 14/ 256.
(3) عُضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 2/ 605.

غرض حذف المفعول به وإقامةِ صفتِه مقامَه:

الصّلاحُ هو سبيلُ النّجاة في الآخرة

حذفَ النّظمُ الحكيم هنا المفعولَ به (عملًا) وأقام صفتَه مقامَه في قوله: ﴿أَعْمَلُ صَٰلِحًا﴾؛ وذلك للعِلْم به وللاهتمام بصفة هذا العمل، فقد كان الكافرُ يعمل في الدّنيا كثيرًا من الأعمال، ولكنّها كانت أعمالًا باطلة خبيثة؛ فأقام هنا صفةَ الصّلاح مقامَ العمل؛ لأنّها هي المُرادةُ في المقام الأوّل، كما أنّ المقام مقامُ إيجاز واختصار، فلحْظَةُ الاحتضارِ ومعاينةِ الموت لحظةٌ خاطفةٌ لا يتّسِعُ فيها المقامُ للتّفصيل.

سِرّ تقييدِ الفعل بشِبه الجملة:

شهادةُ الكافر على نفسه بالتّقصير في الدّنيا

قُيّدَ الفعلُ في هذه الجملة الكريمة ﴿لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا﴾ بشِبه الجملة، وهي قوله: ﴿فِيمَا تَرَكْتُ﴾؛ وذلك لتقوية الدّلالة على ما أصاب الكافرَ من بالغ النّدم على تقصيره في الدّنيا، إذ لو خلتِ الجملةُ من هذا القيد لسَبَقَ إلى وهْم بعضِهم أنّه لم يأخذ فرصتَه كاملةً في الدّنيا، ولكنّ هذا القيدَ أذهبَ الوهمَ باعتراف الكافر بأنّه قد قصّر فيما ترك من العمل الصّالح في الدّنيا.

غرض التّعبير باسم الموصول:

الأعمال الصّالحة الكثيرة التي تركها الكافرُ مُؤكّدة على تقصيره وعِناده

عبّر النّظمُ الحكيم بـ (ما) الموصولة التي تُفيد العمومَ في قوله: ﴿فِيمَا تَرَكْتُ﴾؛ فاتّسعَ مدلولُها ليَشملَ تقديراتٍ كثيرةً في تفسيرها؛ فقيل: أيْ: فيما ضيعتُ من العمل وتركتُه منَ الطّاعات، أو فيما مضى منَ العمر، أو في الإيمان الذي تركتُه، وقيل: المعنى: بدلًا عمّا تركتُ[1].

غرض حذف المفعول به:

جاء النّظمُ الكريم بحذف المفعول به في قوله تعالى: ﴿فِيمَا تَرَكْتُ﴾، وكان مقتضى النّظم أن يقول: (تركته)؛ فعدلَ السّياقُ الكريم عن ذِكْر المفعولِ به إلى حذفه؛ لأنّ في الحذف تكثيرًا

(1) الخطيب، التّفصيل: 18/ 126.

للمعاني؛ إذ يتأتّى من احتمالات المعاني بالحذف هنا ما لا يتأتّى بالذِّكر، فهو إمّا راجِعٌ لِلْعَمَلِ والإيمانِ؛ لِعِلْمِهِ بِعَدَمِ الرُّجوعِ، أوْ لِلْعَمَلِ فقَطْ لِتَحْقيقِ إيمانِهِ إنْ رَجَعَ، فهو كَما في قَوْلِكَ: لَعَلّي أرْبَحُ في هَذا المالِ، أوْ كَقَوْلِكَ: لِعَلّيِ أبْني عَلى أُسٍّ؛ أيْ: أُؤسِّس ثُمَّ أبْني، وقيلَ: فيما تَرَكْتُ من المالِ أوْ من الدُّنْيا، جَعَلَ مُفارَقَةَ ذَلِكَ تَرْكًا لَهُ[1].

فـــي حَـــذْف المفعول به تكثيرٌ للمعاني

بلاغة التّعبير بالفعل (ترك):

آثَرَ النّظمُ القرآنيّ التّعبيرَ بـ (التّرك)، في قوله: ﴿فِيمَا تَرَكْتُ﴾، وقد ذهب بعضُهم إلى أنّ التّرك هُنا مُسْتَعْمَلٌ في حَقيقَتِهِ، وهو مَعْنى التَّخْلِيَةِ والمُفارَقَةِ، وما صَدقَ ﴿فِيمَا تَرَكْتُ﴾ هو عالمُ الدّنيا، ويَجوزُ أنْ يُرادَ بِـ (التَّرْكِ) مَعْناهُ المَجازيُّ وهو الإعْراضُ والرَّفْضُ، عَلى أنْ يَكونَ ما صَدَقَ المَوْصولُ الإيمانَ بِاللّه وتَصْديقَ رَسولِه، فذَلِكَ هو الَّذي رَفَضَهُ كُلُّ مَن يَموتُ عَلى الكُفْرِ؛ فالمَعْنى: لَعَلّي أُسْلِمُ وأعْمَلُ صالِحًا في حالَةِ إسْلامي الَّذي كُنْتُ رَفَضْتُهُ؛ فاشْتَمَلَ هذا المَعْنى عَلى وعْدٍ بِالامْتِثالِ واعْترافٍ بِالخَطَأ فيما سَلَفَ، ورُكِّبَ بِهَذا النَّظْمِ الموجَزِ قَضاءً لِحَقِّ البَلاغَةِ[2]، وهناك مَنْ ذهب إلى أنّ (التّرك) يُطلق على المفارقة من طريق الاستعارة، إذِ استُعير التّرك للمفارقة بجامع الابتعاد في كلٍّ، ثمّ اشتُقّ منَ التّرك (ترك) بمعنى (فارق) على سبيل الاستعارة التّبعيّة في الأفعال[3].

نـدمُ الكافرِ على ما فرّط في حياته الدّنيا

غرضُ التّعبيرِ بأسلوبِ الزّجر:

قرعت ﴿كَلَّآ﴾ سمعَ الكافر فورَ تمنّيه هذه الأُمنيَةَ الباطلة البعيدة، وهي حرف ردّ وزجْرٍ وردعٍ عن طلب الرّجعة، وقيل: هو حرف نفيٍ؛ بمعنى أنّ الرّجعة لا تكون، وفيه معنى الزّجر والرّدع[4]، والمُراد بها

مَـنْ لـم يَـزجـره الإيـمـانُ عـن المـعـاصي زُجِـرَ بـعـدم الرّجـعـة إلى يوم يُبعثون

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 18/ 139.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 125.
(3) فيود، تفسير بلاغي لسورة المؤمنون، ص: 143.
(4) الخطيب، التّفصيل: 18/ 126.

فيهِ قَوْلانِ؛ أحَدُهُما: أنَّهُ كالجَوابِ لَهم في المَنعِ مِمّا طَلَبوا، كَما يُقالُ لِطالِبِ الأمرِ المُسْتَبْعَدِ: هَيْهاتَ، ويُحْتَمَلُ أنْ يَكونَ على وجْهِ الإخْبارِ بِأنَّهم يَقولونَ ذَلِكَ، وأنَّ هَذا الخَبَرَ حَقٌّ، فَكَأنَّهُ قالَ: حَقًّا إنَّها كَلِمَةٌ هو قائِلُها، والأقْرَبُ الأوَّلُ، وفيها وجهٌ ثالثٌ: وهي أنّها رَدْعٌ لِلسّامِعِ؛ لِيَعْلَمَ إبْطالَ طِلْبَةِ الكافِرِ[1]، والغرضُ من استعمال هذا الأسلوب هو بيانُ مدى هوانِ الكافر، فرغمَ التّذلُّلِ والاستعطاف والتّرجّي ساعةَ الاحتضارِ؛ فهو مردودٌ عن الرّجوع، ومستَبْعَدٌ من حياض الرّحمة إلى يوم يُبعثون؛ لتكذيبه وعِناده وجُحوده.

غرضُ تعليل الزّجر بجملةٍ اسميّة مُؤكّدة:

تأكيد عِلْم اللهِ تعالى بسرائر النّفوس

جاءت جملة ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ﴾ عقبَ قوله تعالى: ﴿كَلَّآ﴾؛ لتُعَلّل سببَ هذا الرّفضِ القاطعِ والرّدِّ الجازمِ للرّجوع إلى الدّنيا، وهي جملةٌ اسميّة مُؤكَّدةٌ بحرف التّوكيد (إنّ)، والغرضُ من هذا التّوكيد أن يوقِنَ السّامع أنّ اللّه الذي أحاط بكلّ شيء علمًا قد أحاط بما في نفس الكافر ساعةَ الاحتضار من أقوالٍ لا يقصِد بها حقيقةَ الإيمانِ به سبحانَه.

سِرّ تقييد خبر (إن) بجملةِ صفةٍ اسميّة:

كـذبُ الكفّار وإفكُهم ساعةَ الاحتضار

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ﴾ تَرْكيبٌ يَجْري مَجْرى المَثَلِ؛ وهو مِن مُبْتَكَراتِ القُرْآنِ، وحاصِلُ مَعْناهُ أنَّ قَوْلَ المُشْرِكِ ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ لا يَتَجاوَزُ أنْ يَكونَ كَلامًا صَدَرَ مِن لِسانِهِ لا جَدْوى لَهُ فيهِ؛ أيْ: لا يُسْتَجابُ طَلَبُهُ به[2]، وقد آثَرَ النّظمُ الكريم في قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ أن يُقيّد لفظَ ﴿كَلِمَةٌ﴾ بجملةِ صفةٍ اسميّةٍ؛ وهي قولُه تعالى: ﴿هُوَ قَآئِلُهَا﴾؛ فأفادَ هذا التّقييدُ إيضاحَ حالِ الكافرِ حالَ نُطقِه بجملة ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ أنّه إنّما يقول كلمةً لا معنى لها

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 12/ 119، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 125.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 124.

في قلبه؛ بل هي كلمةٌ يدرأ بها عن نفسه سوءَ المصير؛ أي: هي مجرّدُ كلمةٍ نطقَ بها لا يتجاوزُ النّطقُ بها شفتيه، وقَدْ عُرِفَ منه الخِداعُ والكَذِبُ، فهي كَما عُهِدَ مِنهُ لا حَقيقَةَ لَها[1]، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: 28]، فجُملَةُ: ﴿هُوَ قَآئِلُهَا﴾ وصْفٌ لِـ ﴿كَلِمَةٌ﴾؛ أيْ: هي كَلِمَةٌ هَذا وصْفُها، وإذْ كانَ من المُحَقَّقِ أنَّهُ قائِلُها لَم يَكُنْ في وصْفِ ﴿كَلِمَةٌ﴾ به فائِدَةٌ جَديدَةٌ؛ فتَعَيَّنَ أنْ يَكونَ الخَبَرُ مُسْتَعْمَلًا في مَعْنى أنَّهُ لا وصْفَ لِكَلِمَتِهِ غَيْرُ كَوْنِها صَدَرَتْ من في صاحِبِها، وبِذَلِكَ يُعْلَمُ أنَّ التَّأْكِيدَ بِحَرْفِ (إنَّ) لِتَحْقيقِ المَعْنى الَّذي اسْتُعْمِلَ لَهُ الوَصْفُ[2].

سِرّ إيثار التّعبير باسم الفاعل:

استيلاءُ اليأسِ والقنوط على نفس الكافر

جاء النّظم الكريم باستعمال اسم الفاعل ﴿قَآئِلُهَا﴾ للدّلالة على أمريْن؛ الأوّل: مُضيُّ هذا القول بالنّسبة للكافر؛ فقد مضى هذا القول كأنّه لم يكن؛ فلا عبرةَ به، ولو كان التّعبير بدلًا من ذلك: (كلّا إنّها كلمةٌ هو يقولُها) لدَلَّ ذلك على التّجدُّد والاستمرار والإلحاح، ولكنّ النّظمَ الحكيم لمّا جاء باسم الفاعل، دلَّ على أنّ اليأس والقنوط سُرعانَ ما تَسَرّب إلى نفس الكافر بعدما رأى من هول الاحتضار ما رأى، والآخَر: تأكيدُ نسبةِ هذا القول للكافر؛ أيْ: هو قائلُها لا محالةَ؛ فلا يُخليها ولا يَسكت عنها؛ وذلك لتَسَلّط النّدم واستيلاءِ الحَسْرة عليه، وإمّا للاختصاص؛ أيْ: هو قائلُها وحْدَه، إذ لا يُجابُ إليها، ولا تُسْمَع منه، وذلك بتنزيل الإجابة والاعتداد منزلةَ القولِ حتّى كأنّ المُعْتَدّ بها شريكٌ لقائلها[3].

دلالةُ العطفِ في قوله: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم﴾:

الكافرون بينَ الصّدود وسوءِ الخاتمة

عُطِفت جملةُ ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ على الجملة

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 185.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 125.
(3) فيود، تفسير بلاغي لسورة المؤمنون، ص: 143.

السّابقة بالواو، ويجوز في الواو هنا العطفُ والحاليّة[1]، فأمّا على معنى العطف؛ فالتقدير: فهو لا يُجابُ إلَيْها عَطَفَ عليه قَوْلَهُ جامِعًا مَعَهُ كُلَّ مَن ماثَلَهُ؛ لِأنَّ عَجْزَ الجَمعِ يَلْزَمُ مِنهُ عَجْزُ الواحِد[2]، وأمّا على الحاليّة فهي تُشير إلى حالٍ عظيمةٍ مَهولةٍ تنتظرُهم بسبب إفكهم وافترائهم على الله تعالى وعلى رسوله ﷺ، وذلك بعد أن بيّنت الجملةُ السّابقةُ حالَهم ساعةَ الاحتضارِ؛ فشَرعت في بيان حالهم في البرزخ.

سِرُّ إيثار التّعبير بـ ﴿وَرَآئِهِم﴾ على (أمامهم):

لا مَفرّ للكافر من عذاب البرزخ

آثَرَ النّظمُ الحكيمُ التّعبيرَ بشِبه الجملة ﴿وَمِن وَرَآئِهِم﴾؛ أيْ: أمامهم بعد الموت، وقد ذَكَر العلماءُ في تقدير معنى (الوراء) ثلاثةَ آراء؛ **الأوّل**: أنّ (الوراء) في مثل هذا الموضع مأخوذٌ من تَوارَى؛ أي: اسْتَتَرَ، فلَيْسَ من الأَضْدادِ[3]؛ لأنّ البرزخَ مُتوارٍ لا يظْهَرُ، فعَبّر النّظمُ بـ(الوراء) لاستتار البرزخِ والبعثِ عن العيون؛ حتّى تذهبَ نفسُ الكافر في تَصوُّرِهما كلّ مذهب، **والرّأي الثّاني**: أنّ الوراء بِمَعْنَى خَلْفَ وأَمامَ؛ فهوَ مِنَ الأَضْداد، **والثّالث**: أنّه مجازٌ؛ أي: تكون كَما يُقالُ: هَذا الأَمرُ مِنْ ورائِكَ؛ أَيْ: سوفَ يأتيك، وفيه كنايةٌ ترصد الحياة البَرزخيّةِ لهؤلاء المُكذّبين يُعَذّبون فيها بعدَ أن رَأَوا مقاعدَهم من النّار ساعةَ الاحتضار، وقد أفاد استعمالُ (وراء) على هذا التّقدير نُكْتَةً دقيقة، وهي شِدّةُ ملاحقةِ العذابِ لهؤلاء الكفّار، فـ(الوَراء) يُسْتَعارُ لِحالِ تَعَقُّبِ شَيْءٍ شَيْئًا، وحالِ مُلازمةِ طَلَبِ شَيْءٍ شَيْئًا بِحَقٍّ، وحالِ الشَّيْءِ الَّذي سَيَأْتي قَريبًا، كُلُّ ذَلِكَ تَشْبيهٌ بِالكائِنِ خَلْفَ شَيْءٍ، لا يَلْبَثُ أَنْ يَتَّصِلَ به؛ كَقَوْلِهِ تَعالَى: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ [الجاثية: 10][4].

(1) الخطيب، التّفصيل: 18/ 126.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 185.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 120.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 18/ 124.

غرضُ الكناية ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ﴾:

عــذابُ الـبرزخ مــآلُ المُـكـذّبين المُعاندين

في قوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ﴾ كنايةٌ عن تطلُّبِ عذابِ البرزخِ لهؤلاء الكفّار، وتَرصُّده لهم؛ فهو مُدركُهم لا محالةَ، والغرضُ منها: تهديدُ هؤلاء المُعاندين المُكذّبين بما هو مُسْتَتِرٌ عنهم، وبما هم قادمون عليه لا محالةَ، وفيه كسرٌ لكبريائهم، وحَطٌّ من أكاذيبهم؛ فكأنّهم بين يَدَي عذابِ البرزخِ يطلبُهم؛ فلا يستطيعون منه فِرارًا.

معنى (من) ودلالتُها في: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ﴾:

أشدُّ العذابِ ما يكون عن مُباغتة ومُفاجأة

عبّر النّظمُ الحكيم بـ(من) الابتدائيّةِ في قوله: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ﴾، وهي تُشير إلى تحقيق معنى أنّ أشدّ العذابِ مبتَدِئٌ من ورائهم، ومتَّجِهٌ نحوَهم، والعادة أن يكون الإنسانُ في غفلةٍ عمّا وراءَه، وهذا سببُ تخصيصِ جهةِ الوراء.

غرضُ تقديم شِبه الجملة:

الاهتمامُ بالوراء لـكـونـه جـهـةَ الغفلةِ

في تقديم شِبه الجملة ﴿وَمِن وَرَآئِهِم﴾ على المبتدأ ﴿بَرْزَخٌ﴾ اهتمامٌ بهذه الجهة بوصفها جهةَ الغفلةِ في الإنسان عمومًا، وفي هؤلاء المُكذّبين المُعاندين خصوصًا، فقُدِّمت هذه الجهةُ هنا ليُعلموا أنّهم قد أُحيطَ بهم من كلّ جهة، وجاء بالوراء لتأكيد هذه الإحاطةِ؛ لأنّها جهةُ الهروبِ؛ فيُباغَتون بإحاطة عذابِ البرزخ؛ فلا مهربَ ولا مَنجَى.

الغرضُ من تنكير ﴿بَرْزَخٌ﴾:

هـولُ مـا ينتظر الـكـافـريـن المُكذّبين

جاءت كلمة ﴿بَرْزَخٌ﴾ نكرةً في هذا الموضع، وهو الموضعُ الوحيدُ الذي جاءت فيه في سياق الآخرة، وقد أفاد التّنكيرُ الدّلالةَ على هول ما ينتظر هؤلاء المُكذّبين في الحياة البَرزخيّة، بينَ الاحتضارِ ويوم البعث؛ وذلك لتَذهبَ نفوسُهم كلَّ مذهبٍ في تَصَوّر حالِ هذا البرزخِ وما يكون فيه.

سِرُّ التّقييد بشِبه الجملة ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾:

جاءت جملةُ ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ﴾ مُقَيّدةً بشِبه الجملة ﴿إِلَىٰ يَوْمِ

تـأكـيـدُ الـبـعـثِ يـــوم الـقـيـامـة وبيانُ حتميّتِه

﴿يُبْعَثُونَ﴾، وقد أفاد هذا التّقييدُ بيانَ الغايةِ في مُدّة البَرزخ، فليست مُدّةُ اللّبثِ في البرزخ مُطلقةً؛ بل مُقيّدةٌ بيوم البعث، ومن فوائد هذا التّقييد: إعلامُ الكفّار بأنّهم سينتقلون من عذاب البرزخ إلى لونٍ أشدّ من ألوان العذاب، فإذا كان عذابُ الكافرِ في البرزخ فرديًّا لا يراه أحدٌ، ولا يسمع به أحدٌ، فإنّ العذاب سيتحوّل يومَ البعثِ إلى عذابٍ على رؤوس الأشهاد، وهو أشدُّ إيلامًا لنفوس هؤلاء المُكذّبين المُعاندين.

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿يُبْعَثُونَ﴾:

تـأكـيـدُ قـنـوطِ الـكـافـريـن من الـــرّجـــوع إلى الدّنيا

جاء النّظمُ الكريم بالفعل المضارع ﴿يُبْعَثُونَ﴾؛ ليُشيرَ إلى استحضار الصّورة في أذهانهم، فكأنّهم يُشاهدونها حاضرةً مُتجدِّدةً فيَبْقَون في انتظار البعث رجاءَ أن يصيروا إلى حالٍ غيرِ تلك الحال، ولكنّهم في حقيقة الأمر صائِرونَ إلى حالَةٍ مانِعَةٍ مِنَ التَّلافي، حاجِزَةٍ عَنِ الاجْتِماعِ، وذَلِكَ هو المَوْتُ، ولَيْسَ المَعْنى أنَّهم يَرْجِعونَ يَوْمَ البَعْثِ، إنَّما هو إقْناطٌ كُلّيٌّ لِما عُلِمَ أنَّهُ لا رَجْعَةَ يَوْمَ البَعْثِ إلّا إلى الآخِرَةِ[1].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 124.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والثلاثون،
سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والثلاثون، سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 36 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-79-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 36 : المجلد السادس والثلاثون، سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-78-5
*
إذن طباعة رقم:MC-03-01-8956803 بتاريخ 2024/11/26م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»